طالب العلم بين الترتيب والفوضوية

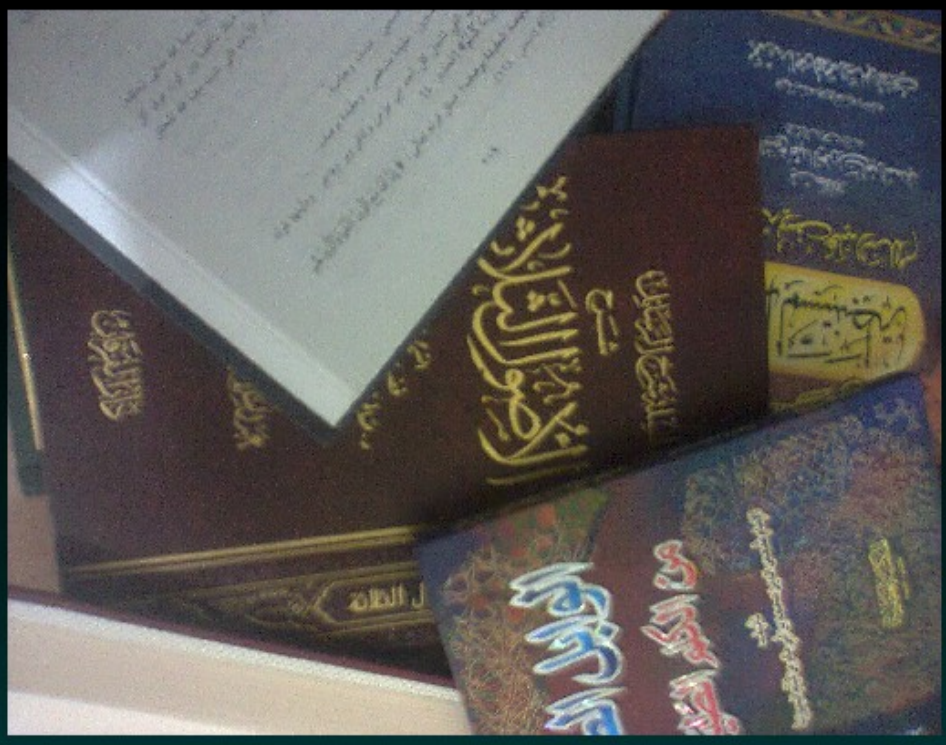

محاضرة للشيخ الفاضل
محمد بن عبد الوهاب العقيل
- حفظه الله -

الحمد لله ربّ العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبيّنا محمد ابن عبد الله الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

ويسرّنا في هذه الليلة الطيبة المباركة، ليلة الأربعاء الثامن عشر من شهر رجب لعام 1432 من هجرة النبي صلّى الله عليه وسلّم أن يكون معنا على الهاتف فضيلة الشيخ الدكتو محمد ابن عبد الوهاب العقيل عضو هيئة التدريس وعضو اللجنة لمناصحة الفئة الضالة وذلك في محاضرة بعنوان طالب العلم بين الترتيب والفوضوية وذلك ضمن اللقاءات السلفية المغربية والتي تأتيكم عبر شبكة الإمام البربهاري حرسها الله وبارك الله فيها.

ويسرّنا أن نرحّب بالشيخ، كما ويسرّنا أن نرحّب بالأخوة والأخوات الذين يستمعون إلينا عبر البثّ الحيّ المباشر.

نسأل الله عزّ وجلّ أن يُجريَ الحقّ على لسان شيخنا وأن ينفعنا بما نسمع، إنّه وليّ ذلك والقادر عليه، فليتفضل شيخنا مشكورًا مأجورًا .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الحمد لله ربّ العالمين، وأصلّي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه، أما بعد ؛

فأهلًا وسهلًا بكم أيها الأخوة في الله تعالى في هذا اللقاء العلمي الذي تنقله من هنا من طيبة الطيبة مدينة النبيّ محمّد صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم، وكما سمعتم فإنّ مضمون هذه الكلمة يدور حول ضرورة ترتيب طالب العلم لرحلته في طلب العلم.

من المعلوم أيها الأحبّة فضل العلم وفضل طلبه وضل مجالسه وفضل أهله؛

يقول الله عزّ وجلّ ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة /من من الآية 11].

ويقول سبحانه ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران/من الآية 18].

ويقول سبحانه ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر/من الآية 28]

والنبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول في الحديث الصحيح «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ ».

والعلم من أعظم العبادات التي يحبها الله عزّ وجلّ، ويحبّ أهلها، ولذلك أمر الله نبيّه محمّدًا صلى الله عليه وسلّم به فقال ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمّد/ من الآية 19].

وأمر الله نبيّه صلّى الله عليه وسلّم أن يسأل ربّه الزيادة في العلم فقال ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[طه/ من الآية 114]

ولّما كان هذا شأن العلم وهذا شأن أهله كان لا بدّ من العناية الفائقة به وأن يرتّب طالب العلم وقته، وأن يرتّب كذلك طالب العلم طريقته في طلب هذا العلم.

ولكون العلم عبادة من العبادات لا بدّ أولًا من تحقيق شرطي قبول العمل فيه، ألا وهما أن يطلب طالب العلم العلم خالصًا لوجه الله لا رياء ولا سمعة ولا جاه ولا منصب ولا مكانة ولا دنيا، وهذا من أعظم الشروط التي لا يقبل الله عزّ وجلّ عمل عاملٍ إلا به .

ويتأكّد هذا الشرط خاصة لكثرة المغريات التي تغري طالب العلم في حال طلبه حتى تصرف نيته عن النية الصالحة الخالصة ؛ فالجاه ينتظر طالب العلم، والشرف ينتظر طالب العلم، وتصدّر المجالس ينتظر طالب العلم، والدنيا تنتظر طالب العلم والناس وخضوعهم ينتظر طالب العلم، ولذلك لا بدّ أن يتنبّه طالب العلم أولًا للنيّة فيجعل نيّته في طلب العلم خالصةً لوجه الله سبحانه وتعالى لا رياء ولا سمعة. ولذلك حذّر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم من أن ينصرف قلب طالب العلم للدنيا ؛ حذّره من أن يكون علمه لغير الله عزّ وجلّ، فقال صلّى الله عليه وسلّم « مَنْ طَلَبَ عِلْمًا مِمّا يُبْتَغَىْ بِهِ وَجْهُ اللهِ عَزَّ لا يَطْلُبُهُ إلا لِيُصِيْبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ» ، ويقول صلّى الله عليه وسلّم « أَوَّلُ مَنْ تُسَعَّرُ بِهِمُ النّارُ يَوْمَ القِيَامَةِ ثَلاثة... » ذكر منهم قارئ للقرآن فجاء الله به فسأله قال ((يا ربّ قرأت القرآن وعلّمته فيك ، وطلبت العلم وعلّمته فيك))، فقال الذي لا تخفى عليه خافية سبحانه وتعالى ((كذَبتَ ، إنّما قرأتَ القرآن ليقالَ قارئ ، وقد كان وطلبتَ. العلمَ ليُقَالَ عالم وقد قيل ثمّ أمر به فَسُحِبَ على وَجْهِهِ حتّى أُلقيَ في النّار))

وفي الحديث الآخر يقول النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم « ما ذِئْبَانِ جَائِعَانِ سُلِّطَا عَلَىْ غَنَمٍ بأفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ المرْءِ على المَالِ والشَّرفِ لدِينه »

فالمغريات كثيرة يا طالب العلم ، فتنبّه أن تزلّ قدمك فتخسر الدنيا والآخرة والعياذ بالله .

الشرط الثاني أن يكون علمك على طريقة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ،

العلم قال الله قال رسوله قال الصحابــة ليس خلــفٌ فيه

العلم ما كان في قال حدّثنا وما سوى ذاك وسواس الشياطين

لا بدّ أن تتعلم ما جاء به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، لا بدّ أن تصبر نفسك على ما جاء به النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، لا بدّ أن تتعلم معتقد النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ، عبادات النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، معاملات النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ، أخلاق النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم.

لا بدّ أن تحرص أن تكون في منهجك وفق منهج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وطريقته وسنّته، ولا سيما في زمان

الغربة، فكلما بعُد الزمان عنه صلى الله عليه وسلّم عرفنا أنّه لانجاة لمن جاء بعده إلا باتباعه صلّى الله عيه وسلّم.
ولذلك حذّر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مخالفة أمره فقال « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدّ »، وقال صلّى الله عليه وسلّم « مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ ردّ ».
والمحدثات في العلم كثيرة، فإن المدارس الإسلامية التي تنتسب إلى الإسلام ثلاث وسبعون مدرسة كما قال صلّى الله عليه وسلّم «وَإِنَّ هَذِهِ الْمِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَهِيَ الْجَمَاعَةُ» ، أوقال «وَهِيَ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي».
فقبل أن تبدأ يا طالب العلم طلب العلم لا بدّ أن تضع قدمك في الموضع الذي وضعها صلّى الله عليه وسلّم فيه بلا زيادةٍ أو نقصان وإيّاك أن تصرفك عن سنّة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وطريقته الصوارف إما التقليد أو الهوى ، فإنّ الصوارف كثيرة؛ منها التقليد واتباع الآباء والأجداد والمشايخ، كذلك الهوى أو التعصّب أو نسأل الله العافية إتّباع علماء السوء، فإنّ هذا من أعظم الصوارف التي تصرف طالب العلم عن اتباع النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم.
فاحذر يا طالب العلم من أن تُصرف عن دين نبيّك صلّى الله عليه وسلّم وطريقته
« مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا هذا فَهُوَ ردّ »
﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ¤ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه/ من الآيتين 123-124]

كذلك يا طالب العلم لا بدّ أن تسير في طلبك للعلم كما سار السلف الصالح رحمهم الله تعالى، لا بدّ من ترتيب أمورك في طلب العلم ؛ لا بدّ أن تبدأ بما بدأ به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم والسلف الصالح :
إبدأوا بالأفضل ثمّ ما جاء بعده [.غير مفهوم.]
ثمّ بقيّة أركان الإسلام ثمّ بقية شُعَب الإيمان .
ولذلك قسّم العلماء رحمهم الله تعالى العلم إلى قسمين :
قالوا من العلم ما هو فرض عين لا يجوز للبالغ المسلم العاقل تركه أبدًا أو جهله، فمنه ما هو فرض العين ، فلا ينبغي لطالب العلم أن ينتقل من فروض الأعيان إلى فروض الكفاية قبل أن يتقنها ولذلك قال العلماء رحمهم الله : ((كلّ ما وجب عليك اعتقاده أو وجب عليك قوله أو وجب عليك فعله أو وجب عليك تركه يجب عليك أن تتعلمه)) ، ثمّ إذا زدت فهو من فروض الكفاية ، وكلّما ازددت علمًا كلما ازددت إيمانًا بالله سبحانه وتعالى .
ولذلك لا بدّ أن يخطّ طالب العلم له طريقةً يوافق بها طريقة النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، فيبدأ بما بدأ به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم المعتقد ، حيث مكث النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ثلاث عشرة سنة وهو يدعو النّاس إلى

لا إله إلا اله ، فإذا أتقن طالب العلم هذه القضيّة : التوحيد وبيانه ومعرفته انتقل بعدها إلى بقيّة أركان الإيمان ، فإذا أتقنها بأدلتها إنتقل إلى بقية المعتقَد ثمّ إلى أركان الإسلام ركنًا ركنًا حتّى يصل إلى آخر شعبة من شُعب الإيمان .

وهكذا يكون طالب العلم قد أصّل نفسه ، فيسير خطوةً خطوة بخطىً ثابتة، لا كما هو حال بعض طلاب العلم يتصيّد العلم تصيّدًا، يأخذ من هنا شاردة ومن هنا شاردة دون أن يؤصّل نفسه ودون أن يبدأ بما بدأ به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، ولذلك لّما دعا النبيّ صلّى عليه وآله وسلّم معاذ ابن جبل إلى نحو أهل اليمن قال« يا معاذ إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلوا فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة في أموالهم تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم، فإذا أقرّوا بذلك فخذ منهم، وتوق كرائم أموال الناس »

وهكذا الواجب على طالب العلم أن يؤصّل نفسه وأن يتدرّج في العلم ، فلا بدّ من الصبر ولا بدّ من سعة الصدر ولا بدّ من مجاهدة النفس ولا بدّ من كبح جماحها وإلا فلن تُقبل على طلب العلم وقديمًا قالوا [.غير مفهوم.].

أما ما نشاهده اليوم للأسف الشديد من بعض طلاب العلم والمشتغلين به من ترك للتأصيل الشرعي أو تركٍ لدراسة العلم على طريقة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أو الإشتغال بأمورٍ ليست لهم ، يتركون ما أوجب الله عزّ وجلّ عليهم ويشتغلون بما لم يوجبه الله عزّ وجلّ ، هذا خطأ ، وهؤلاء يصحّ فيهم المثل قاطعٌ بأمّه بارٌّ بخالتيه ، وهذا خطأ . يجب عليك أن تبرّ أمّك أولًا ثمّ الأقرب فالأقرب وهكذا...

تتعلم وتعمل وتدعو وتصبر على ما فرض الله عزّ وجلّ عليه، ثمّ بعد هذا تتدرّج في العلم تدرّجًا .

ومن أفضل الكتب الجامعة في العلم حفظكم الله كتاب ابن عبد البرّ المالكي رحمه الله [جامع بيان العلم وفضله]، فإنّ هذا من أعظم كتب العلم التي جمعت آثار السلف الصالح رحمهم الله في المنهجية في طلب العلم .

وهناك كتبٌ كثيرة صغيرة فيها منهجيّةٌ في طلب العلم لا بدّ لطالب العلم حفظكم الله ورعاكم أن يسير عليها وأن يترك هذه الفوضى الموجودة عند بعض طلاب العلم بالأخذ من هنا وهناك دون تأصيلٍ شرعي .

هذا ما يسّر الله عزّ وجلّ إلقاءه . وأسأل الله عزّ وجلّ أن يوفقني وإياكم في دينه . والله أعلى وأعلم . وصلّى الله وسلّم على محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين .

إنتهى تفريغ المحاضرة بعون الله تعالى

– ما عدا الخطأ والنسيان وعدم وضوح التسجيل –